الفصل الأول

شهر رمضان وليلة القدر

١ – شهر رمضان فى اللغة

والشهر فيما قيل ، أصله من « الشهرة » . يقال منه :

« قد شهر فلان سيفه » – إذا أخرجه من غمده فاعترض به من أراد ضربه – « يشهره شهراً » . وكذلك « شهر الشهر » ، إذا طلع هلاله ، « وأشهرنا نحن » ، إذا دخلنا فى الشهر ، هذا عن كلمة : شهر .

أما عن كلمة رمضان : فإنها من الرمض ، يقول صاحب مختار الصحاح :

« الرمض » بفتحتين : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والأرض (رمضاء) بوزن حمراء ، وقد (رمض) يومنا : اشتد حره ، وبابه طرب ، وأرض (رمضة) الحجارة و (رمضت) قدمه أيضاً من الرمضاء أى احترقت .

وفى الحديث « صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال من الضحا » ، أى إذا وجد الفصيل حر الشمس من الرمض ، يقول صلاة الضحا ، تلك الساعة .

و (أرمضته) الرمضاء : أحرقته .

وشهر (رمضان) جمعه (رمضانات) و (أرمضان) بوزن

أصفياء . قيل : إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك » [1] .

وكان مجاهد رضى الله عنه يكره أن يقال : « رمضان » . ومن كلامه :

« لكن نقول كما قال الله : « شهر رمضان » .

٢ – ليلة القدر

وفى هذا الشهر المبارك ، أنزل القرآن الكريم . . يقول سبحانه : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

ويقول سبحانه :

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر) .

إن وثيقة فريدة فى العالم كله ، لا مثيل لها فى تراث الإنسانية تحدثنا عن هذه الكيفية .

---

(١) مختار الصحاح

ونعنى بذلك الحديث الشريف الذى رواه الإمام البخارى ، وروته كتب السنة عن كيفية بدء الوحى :

يقول الإمام البخارى نضر الله وجهه : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال :

اقرأ

قال : ما أنا بقارئ

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ من الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

اقرأ

قلت : ما أنا بقارئ

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

اقرأ

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ

وربك الأكرم)

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال :

زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة :

« كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ، ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً ، قد عمى فقالت له خديجة :

يابن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقه : يابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى .

فقال له ورقة :

هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ :

أو مخرجىّ هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . » .

إن هذا الحديث الشريف يوضح كيفية نزول الوحى .

ولقد سمى القرآن الليلة التى نزل فيها القرآن : ليلة القدر ، أى ليلة الشرف والرفعة ووصفها بأنها مباركة يقول الله تعالى :

(إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) .

وما دام القرآن الكريم قد أنزل فى ليلة القدر ، وأنه سبحانه قد أنزله فى شهر رمضان فإنه يتعين أن تكون ليلة القدر فى شهر رمضان .

ويتساءل الناس : أى ليلة هى فى شهر رمضان ؟

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم ، فإننا نجد أنه لم يحددها ، ولم يحددها الرسول ﷺ تحديداً تاماً ، وإنما حددها على التقريب فإنه صلوات الله عليه وسلامه يقول فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما :

« تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر » أى فى العشر الأواخر من رمضان : وتحروا : أى اطلبوها بجد فى العبادة ، ثم يقرب الرسول ﷺ الأمر أكثر من ذلك فيقول فيما رواه الإمام البخارى :

« تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

ولقد رآها كثير من الصحابة فى السبع الأواخر من رمضان .

ويحددها أبىّ بن كعب ، وابن عباس رضى الله عنهما ، وكثير غيرهما

بأنها ليلة السابع والعشرين .

عن زر بن حبيش قال : سألت أبيّ بن كعب فقلت : إن أخاك ابن مسعود يقول : « من يقم الحول يصب ليلة القدر » فقال رحمه الله : « أراد ألا يتكل الناس » .

أما إنه قد علم أنها فى رمضان ، وأنها فى العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبع وعشرين » ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين . فقلت : بأى شىء تقول ذلك يأبا المنذر ؟ قال : « بالعلامة – أو بالآية – التى أخبر عنها رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها » .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط فى قبة تركية ، ثم أطلع رأسه فقال : « إنى أعتكف العشر الأول ألتمس هذه الليلة ، ثم أعتكف العشر الأوسط ثم أتيت فقيل لى :

إنها فى العشر الأواخر ، فمن كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، ثم أريت هذه الليلة ثم أنسيتها ، وقد رأيتنى أسجد فى ماء وطين من صبيحتها ، فالتمسوها فى العشر الأواخر . . . والتمسوها فى كل وتر » .

قال : فمطرَت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش ، فوكف المسجد فبصُرت عيناى رسول الله ﷺ ، وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين .

متفق عليه فى المعنى واللفظ لمسلم إلى قوله : « فقيل لى إنها فى العشر الأواخر » . والباقى للبخارى .

على أن المحاولات فى سبيل تحديد ليلة القدر كثيرة وطريفة :

منها مثلا ما قال بعضهم : من أن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان ، وكلمة « هى » التى تشير إلى ليلة القدر فى قوله تعالى فى السورة نفسها : (سلام هى) هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين ، هذه محاولة .

ومحاولة أخرى هى :

أن حروف ليلة القدر تسعة حروف وقد ذكرت ليلة القدر فى السورة ثلاث مرات ، وثلاثة فى تسع بسبع وعشرين .

أما الشيخ أحمد زروق رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها :

إنها لا تفارق ليلة جمعة من أوتار آخر الشهر وقد روى هذا أيضاً عن ابن العربى .

وهذه محاولات ، أما الثابت اليقين ، هو : أن القرآن لم يعينها تعييناً واضحاً ، . . . وأن الرسول ﷺ لم يحددها تحديداً تاماً .

ولقد قال أسلافنا رضى الله عنهم :

أخفى الرب أموراً فى أمور لحكم :

ليلة القدر فى الليالى لتحيى جميعها .

وساعة الإجابة فى الجمعة ليدعو فى جميعها .

والصلاة الوسطى فى الصلوات ليحافظ على الكل .
والاسم الأعظم فى أسمائه ليدعى بالجميع .
ورضاء فى طاعته ليحرص العبد على جميع الطاعات
وغضبه فى معاصيه لينزجر عن الكل .
والولى فى المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم .
ومجىء الساعة فى الأوقات للخوف منها دائماً .
وأجل الإنسان عنه ، ليكون دائماً على أهبة .

ويعقب الشيخ أحمد الصاوى على ذلك فى حاشيته ، على الجلالين ، فيقول :

« فعلى هذا يحصل ثوابها لمن قامها ، ولو لم يعلمها ، نعم العالم بها أحمل ، هذا الأظهر » .

* * *

أما فضلها فإنه هائل ضخم ، ففيها نزل القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان .

ومعنى نزول القرآن نزول رسالة الرحمة العامة ، الرحمة بكل العوالم ، فإن الله سبحانه وتعالى قد حدد سبب الرسالة الإسلامية ، وحدد أساسها وحدد غايتها ، وهدفها بأنه الرحمة .

يقول تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

ويقول سبحانه : (حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ،

إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) .

ثم إنه تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم .

فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ .

« إذا كان ليلة القدر نزل جبريل (عليه السلام) فى كبكبة من الملائكة ، يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز جل ، فإذا كان يوم عيدهم ، يعنى يوم فطرهم – باهى بهم ملائكته ، فقال : يا ملائكتى . . ما جزاء أجير وفّى عمله ؟ قالوا :

- ربنا جزاؤه أن يوفى أجره . قال :

ملائكتى ؟ عبيدى وإمائى قضوا فريضتى عليهم ، ثم خرجوا يعجون إلىّ بالدعاء وعزتى وجلالى ، وكرمى وعلوى ، وارتفاع مكانى ، لأجيبنهم ، فيقول : ارجعوا فقد غفرت لكم ، بدلت سيئاتكم حسنات . قال : فيرجعون مغفوراً لهم » .

ثم هى سلام من أولها حتى مطلع الفجر : (سلام هى حتى مطلع الفجر) .

ومن أجل ذلك كانت خيراً من ألف شهر .

والألف شهر هى : ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، وذلك عادة عمر الإنسان ، فهى خير من عمر الإنسان ، من عمر كل إنسان : من عمر كل إنسان فى الماضى وفى المستقبل ، أى أنها خير من الدهر .

ومن فضل الله سبحانه وتعالى على المسلمين ، أن من قامها ، إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفى فضلها نروى الأحاديث التالية :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ :

« إن هذا الشهر قد حضركم ، وفيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرمها فقد حرم الخير كله ولا يحرم خيرها إلا محروم » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وتقدم فى وراية لمسلم قال :

« من يقم ليلة فيوافقها — وأراه قال : إيماناً واحتساباً — غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وروى أحمد من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن عمرو بن عبد الرحمن عن عبادة بن الصامت قال : أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر قال :

« هى فى شهر رمضان فى العشر الأواخر ، ليلة إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو آخر ليلة من رمضان ، من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال :
« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

يقول الإمام الصاوى فى حاشيته على الجلالين :

« وأحسن ما يدعى به فى تلك الليلة العفو والعافية كما ورد » .

وينبغى لمن شق عليه طول القيام ، أن يتخير ما ورد فى قراءته ، كثرة الثواب : كآية الكرسى .

فقد ورد أنها أفضل آية فى القرآن .

وكأواخر البقرة لما ورد : « من قام بهما فى ليلة كفتاه » .

وكسورة « إذا زلزلت » لما ورد : أنها تعدل نصف القرآن .

وكسورة « الكافرون » لما ورد : أنها تعدل ربع القرآن .

والإخلاص تعدل ثلثه .

ويس ، لما ورد : أنها قلب القرآن ، وأنها لما قرئت له .

ويكثر من الاستغفار ، والتسبيح والتحميد ، والتهليل ، وأنواع الذكر : والصلاة على النبى ﷺ .

ويدعو بما أحب لنفسه ، ولأحبابه ، أحياء وأمواتاً .

ويتصدق بما تيسر له .

ويحفظ جوارحه عن المعاصى .

ويكفى فى قيامها صلاة العشاء والصبح فى جماعة .

وورد من صلى المغرب والعشاء فى جماعة ، فقد أخذ بحظ وافر من ليلة القدر .

وورد من صلى العشاء فى جماعة ، فكأنما قام شطر الليل ، فإذا صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام شطره الآخر .

وقد ورد : « من قال لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ثلاث مرات ، كان كمن أدرك ليلة القدر ، فينبغى الإتيان بذلك كل ليلة » .

هل هى حقاً ليلة تفتح فيها أبواب السماء لإجابة الدعاء ؟

نعم ، ولا ريب ، أنها ليلة تفتح فيها أبواب السماء لإجابة الدعاء للموعودين . والموعودون هم الذين استجابوا لله سبحانه وتعالى ، فاستجاب الله لهم ، هم الذين استقاموا كما أمروا ، هم الذين أسلموا وجوههم إليه ، فتكفل بهم .

إن هؤلاء إذا سألوا الله أعطاهم ، وإذا استعاذوا به أعاذهم ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره .

ومن وسائل التأهل لليلة القدر : الاعتكاف .

وسنة الاعتكاف أن يبدأ الذى عزم على الاعتكاف ، اعتكافه بعد صلاة الفجر مباشرة .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

كان رسول الله ﷺ ، إذا دخل العشر أى العشر الأخيرة من

رمضان ، شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله .

وفى رواية لمسلم :

كان يجتهد فى العشر الأواخر مالا يجتهد فى غيره .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف ، صلى الفجر ، ثم دخل فى معتكفه .

وتوضح السيدة عائشة رضى الله عنها سلوك المعتكف فتقول :

« السنة على المعتكف ألا يعود مريضاً ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس المرأة ، ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة ، إلا لما بد منه ، ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا اعتكاف إلا فى مسجد جامع [1] .

والمعتكف يستعد للاعتكاف بالفراش والغطاء وبما يلزمه .

عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ : أنه كان إذا اعتكف طرح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة [2] .

وبعد :

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت صاحب هذا القبر يقول من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها (أى حتى قضى له أمره) كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين .

ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى ، جعل الله بينه وبين النار

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه ابن ماجه .

ثلاث خنادق أبعد مما بين الخافقين [1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فى المعتكف :

« هو يعكف الذنوب ، ويجرى له من الحسنات كعامل الحسنات كلها »[2] .

وعن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ! أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : قولى :

« اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى »[3] .

٣ – ليلة القدر

إيجاز ، وتلخيص ، وتفصيل

يقول الله تعالى :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) أى أن المعتكف قد اتخذ الأسباب بالاعتكاف لحفظ نفسه من الذنوب فيكتب الله تعالى له من الثواب ما يماثل ثواب فاعل الطاعات كلها وذلك أنه وقف نفسه فى بيت الله على طاعة الله .

(٣) رواه أحمد ، وابن ماجه ، والترمذى وصححه .

ويقول سبحانه :

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر) .

وليلة القدر إذن هى فى شهر رمضان ، أخذاً من هذه النصوص الكريمة .

ويخبر ، سبحانه ، عن هذه الليلة : أنها خير من ألف شهر ، إذ تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر .

وهى فضلا عن ذلك ، سلام يستمر من غروب الشمس حتى مطلع الفجر .

ومن أجل هذا الفضل العظيم ، كان رسول الله ﷺ ، يستعد لها بالعبادة ، ويهيئ الجو الروحى المناسب لنزول الملائكة والروح ، والمناسب للسلام القلبى الذى هو ثمرة التوبة والإنابة والتقوى ، والذى هو اطمئنان النفس إلى الله ، فيخاطبها سبحانه ، خطاباً تفهمه .

(يأيتها النفس المطمئنة : ارجعى إلى ربك – فى هذه الدنيا وفى الآخرة – راضية عن الله ، مرضية منه ، فادخلى فى عبادى عاجلا ، وادخلى جنتى آجلا .

وكانت التهيئة التى يقوم بها ، ﷺ ، استعداداً لشروق نور هذه الليلة الشريفة : إنما هى الاعتكاف ، كان ﷺ ، يعتكف عادة فى العشر الأواخر من رمضان ، فيدخل المسجد قبل غروب شمس اليوم العشرين من الشهر المبارك ، يدخل متفرغاً للعبادة ، متجهاً إلى الله بكل كيانه .

وما من شك فى أن الاعتكاف فى المسجد ، يهيئ الجو لجمع الخواطر ، ويهيئ الصفاء القلبى ، فيتفرغ الإنسان للطاعة ، متشبهاً بالملائكة ، ويتعرض بذلك لليلة القدر ، وقد كان ، ﷺ ، يحث الصحابة على هذا الاعتكاف ، ويشجعهم عليه ، التماساً لمرضاة الله وتعرضاً ، لإشراق ليلة القدر .

وهى ليلة يكون فيها انتشار الروحانية بقراءة القرآن والصلاة والذكر ، وتنزل فيها الملائكة طائفة بالذاكرين ، مستغفرة لهم ومصلية عليهم ، مبشرة لهم .

عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا كان ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد ، يذكر الله تعالى » .

ويقول الله سبحانه :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة : ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم » .

إن أنوار المؤمنين المتبتلين فى تلك الليلة : تتلألأ متعاكسة فيما بينهم ، وتمتزج ، فتجذب بلألائها الأوراح الملائكية ، فتقترب من المتعبدين فتزيد فى الصفاء ، فيكون انشراح الصدر ، ووضع الأوزار التى تنقض

الظهور ، ويكون غسل القلب بالماء والثلج والبرد وتتوافر بكل ذلك وسائل التعرض لنفحات الله .

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها »

وليلة القدر من نفحات الله .